سينما

## عن ركاكة بعد نتاجٍ مهمّ
# «شاي أسود»: مُنجَزٌ بصري يُخالف الهدف

فيلم جديد لعبد الرحمن سيساكو يحاول قراءة تواصل ثقافي وحضاري بين أناس مختلفين، من دون بلوغ مرتبة سينمائية مُقنعة وفعّالة

نديم جرجوره

لن تكون أول مرّة في تاريخ السينما، وطبعاً لن تكون الأخيرة: أنْ يُنجز مخرجٌ عملاً أقلّ بكثير من أدنى مستوى جمالي يُمكن تحقيقه، وللمخرج أفلامٌ رائعةٌ، تأثيرُ بعضها (على الأقلّ) في المشهد السينمائي، فنّاً وجماليات وأسلوب اشتغال، فاعلٌ طويلاً. هناك من يُخرج فيلماً أقلّ أهمية من سابقه، لكنّ «الجديد» يمتلك، أحياناً، شيئاً من مقوّمات فنّ الصورة وتقنياتها وتفاصيلها، في مقابل خللٍ في المعالجة الدرامية، أو في اختيار قصة صالحةٍ لترجمة بصرية مفيدة وممتعة، أو في جمالية الترجمة نفسها، أو في انتقاء ممثلين وممثلات يصلحون لدور أو لآخر. الموريتانيّ عبد الرحمن سيساكو (1961) أحد هؤلاء. فيلمه الأخير، «شاي أسود». المُشارك في المسابقة الرسمية للدورة 74 (15 . 25 فبراير/شباط 2024) لـ«مهرجان برلين السينمائي (برلينالة)». مثلٌ على ذلك، رغم أنّ رغبته في أنْ ينفتح على ثقافات وحضارات، وفي أنْ يعثر على خطّ تواصل بينها، ماثلةٌ في خلفية صُور غير متمكّنةٍ من إبراز عمق التواصل والعلاقة، لفقدانها جمالية مُنجز بصري متكامل المعالم والمفردات. ثقافات وحضارات مُدرجةٌ في النصّ السرديّ، وبعضها غير مُقنع لإقحامه عمداً، وبالقوة، في مسار ذاك النصّ السردي نفسه، كأنّ تظهر شخصية رجل خليجي، سيكون سعودياً بسبب مِنَح سعودية في تمويل الفيلم (مهرجان البحر الأحمر السينمائي)، من دون أنْ يكون لتلك الشخصية أي تأثير أو فعالية أو حاجة. شخصية باهتة، مفروضة بقوة مالٍ غير كافٍ، أصلاً، لإنتاج، تُشير لائحة جهاته إلى كمٍّ هائل منها، يصبّ كلّه في فيلم ركيك ومُضجر وفاقدٍ لأي معنى مُفيد، سينمائياً ودرامياً وفنياً وجمالياً وتأمّلياً. شخصية تاجر يبحث عن بضاعة (بعضها ملابس داخليّة نسائية، يُصوِّر بطريقة نافرة بصرياً)، في سياق خارج كلّياً عن السرد الأصلي. هذا يكشف مأزقين، يُعبِّر عنهما بسؤالين: ما سبب انحدار مخرج كعبد الرحمن سيساكو إلى هذا البؤس السينمائي؟ ما هدف اختيار فيلم كـ«شاي أسود»، فارغ ومُملّ وغير نافع (رغم القليل الجميل والمهمّ فيه)، في مسابقة رسمية لمهرجان مُصنَّف فئة أولى؟ طرح السؤالين طبيعي، لكنّ الإجابة عنهما صعبةٌ، إنْ لم تكن مستحيلة، فانحدار مخرج ربما يكون غير واعٍ، أو ربما ينبثق من حاجة إلى إنجاز، أياً تكنْ نتيجته السينمائية. والاختيار متأتٍ من عجز عن الحصول على الأهمّ والأفضل والأجمل، أو من «قناعة» لدى الإدارة الفنية للمهرجان، بـ«انفتاح على ثقافات وحضارات»، من دون تفكير بجودةٍ مطلوبة في فعل الاختيار.

لكنْ، كي تستقيم كتابة نقدية عن «شاي أسود»، يُفضَّل الابتعاد عن كلّ تفكير مرتبطٍ بسبب الانحدار وآلية الاختيار. جديد سيساكو، باختصار، مهلهلٌ ومرتبك، يتّضح أنّ إنجازه غير متوافق مع المعنى الذي يُريده المخرج في قراءة علاقاتٍ بين ثقافات وحضارات، وأنّ المُنجز النهائي خاضعٌ لنزوات إنتاجية غير مهتمّة بتحويل المشروع إلى فيلمٍ سينمائي.

> انحدار سينمائي غير مقبول واختبار مهرجانيّ غير مُقنع

لأنها غير مرتاحة في بيئتها، الجغرافية (مدينة في ساحل العاج) والاجتماعية والحياتية، ما يدفعها إلى رفض الزواج ممن يطلبونه منها، وإنْ تُعلن الرفض أمام الجميع، لحظةَ العرس، تُغادر آيا (نينا مِلو) مدينتها، وتسافر إلى «غوانْجو» (عاصمة مقاطعة «غُونغْدونغ»، في جنوبي الصين)، وتختار حيّاً يُقيم فيه أناسٌ من بلدها، وتعمل في محلّ لبيع الشاي، يملكه الصينيّ كاي (تشانغ هان). علاقة عاطفية تنشأ بينهما، بسلاسة وخفّة، قبل أنْ تنكشف أمورٌ عدّة، تحول دون إتمامها. كاي (45 عاماً) منفصلٌ عن زوجته، وله ابنة غير عارفٍ شيئاً عنها منذ سنين، وله ابنٌ يلتقيه دائماً، وإنْ تكن بينهما مسافة. آيا (في منتصف ثلاثينياتها) تريد حياة هادئة ومُريحة مع من تُحبّ. فيها شيءٌ من حيوية عيش، وعلاقاتها مع «ناس الحيّ»، أفارقة وصينيين، طيّبة وجميلة. كاي يريد، بدوره، هناءً وصفاء، ويرغب في حَلّ أمور عالقة في ماضيه. لكنْ، هناك مانعٌ يزداد حدّة، ومع ازدياد حدّته، تجد آيا نفسها مُرغمة على العودة إلى بلدتها.

ما يُفترض به أنْ يكون حكاية رومانسية بين اثنين، ينتمي كلّ واحدٍ منهما إلى ثقافة واجتماع وأنماط تفكير مختلفة (إنْ لم تكن متناقضة) عن ثقافة الآخر واجتماعه وأنماط تفكيره، يُراد له، أقلّه تنظيراً من مخرج له نتاجٌ سينمائي مهمّ، أبرزه «تيمْبَكتو» (2014)، أنْ يُصبح قراءة بصرية عن حوار ثقافات وحضارات، لن يتمكّن (الحوار المرغوب فيه) من إظهار مفرداته، سينمائياً، بما يُقنع مُشاهداً مهتمّاً. المسار السرديّ طويل (111 دقيقة)، قياساً إلى المضمون، الدرامي والحكائي والجمالي والفني. الفراغ يحلّ بين حين وآخر، كما الثرثرة (البصرية والكلامية). رتابة في التقاط مشاهد عدّة (تصوير أيمريك بيلاڤسكي)، رغم أنّ في بعضها جمالاً طبيعياً؛ بُطءٌ في الإيقاع غير مُريح في متابعة حكايةٍ، يُمكن اختصارها كثيراً لخلوّها من مُفيد وممتع (سيناريو كِسِن فاتوماتا تال وسيساكو)؛ انتقالٌ غير مُبرَّر، سينمائياً، من واقعية سردٍ إلى ما يُشبه مزيجَ الفانتازيا بالمغامرة، في لقاء كاي بابنته مثلاً. هذه أمثلة. «شاي أسود» غير مُقنع في مفاصل عدّة من سرده الحكاية. الأداء عاديّ، وبعضه بطيء ومملّ. الموضوع يُناقَش، لكنّ قوله سينمائياً مرتبكٌ.

«شاي أسود»: ثقافات وحضارات غير مُنجزة بجماليات سينمائية
(الموقع الإلكتروني للـ«برلينالة»)

## «ثقل التاريخ» في «برلينالة»
# عنف مصوَّر سينمائياً وللموسيقى حضورٌ أيضاً

مشتركٌ أساسيّ بين أفلامٍ عدّة، معروضة للمرة الأولى دولياً في المسابقة الرسمية للدورة الـ74 (15 . 25 فبراير/شباط 2024) لـ«مهرجان برلين السينمائي (برلينالة)»، يتمثّل بـ«ثقل التاريخ». أي أنّ أفلاماً كهذه تختار من الماضي ما يُعتَبَر ثقلاً، أخلاقياً وثقافياً واجتماعياً، في تاريخ بلدان ومجتمعات وأفراد. هذا غير مفاجئ. مخرجون ومخرجات كثيرون يستلّون من تاريخ بلدانهم ما يرونه مناسباً لقراءة أو أكثر، ترتبط برغبةٍ في مُصالحةٍ واغتسال، أو تُشبه راهناً، أو تتقاطع مع مسائل آنيّة، يُلجَأ إلى التاريخ لقول (مبطّن، غالباً) مفاده أنّ في التاريخ مسائل عالقة، أو أنّ الاشتغال على بعضها غير كافٍ.

في المقابل، تهدف عودةٌ دائمة إلى فصل واحدٍ من التاريخ إلى تذكير متكرّر بفداحة جُرمٍ مرتكب قبل أعوام، كنوع من ابتزاز، أو كتأنيب قاسٍ على فعلٍ يرتكبه آخر، في زمن قديم. النازيّة مثلٌ، و«تأنيب الضمير» مُنتِجٌ فعّال لأفلام (ولغيرها) تنبش كلّ فعل، صغير أو كبير، يُذكِّر الألمان أولاً وبقيّة الشعوب ثانياً بجريمة أدولف هتلر وجماعته. «من هيلدا، مع الحبّ»، للألماني أندرياس دْرِيْزن، مثلٌ على ذلك، رغم أنّ تذكيره بجُرم نازيّ متمثّل بإعدام شيوعيين وشيوعيات، أو متعاطفين. متعاطفات مع الاتحاد السوفييتي. جوهر الحكاية مهمّ، إذ يُقرّ ألمانيٌّ (دْرِيْزن) بأنّ للنازية جرائم بحقّ أفرادٍ غير اليهود أيضاً، وهذا ضروريّ في بلدٍ خاضع لابتزاز يهودي . صهيوني . إسرائيلي خانق، والحاصل في ألمانيا حالياً، تحديداً منذ «طوفان الأقصى» (7 أكتوبر/تشرين الأول 2023)، وحرب الإبادة الإسرائيلية في قطاع غزّة، دليلٌ على الخضوع الألماني (رسمياً على الأقلّ) المخيف للوبي اليهودي الصهيوني . الإسرائيلي، مع أنّ هناك أصواتاً يهودية (وألمانية) ترفض الحرب، لكنّها غير مؤثّرة كفاية. قصص من التاريخ تحضر في أفلام، وبعض القصص مُثقَلٌ بجرائم متنوّعة: «أشياء صغيرة كهذه»، للبلجيكي تيم مَيْلان («الدب الفضّي لأفضل أداء في دور ثانٍ» للممثلة البريطانية إيميلي واتسون)، يستعيد فصولاً سوداء في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في أيرلندا (عشرينيات القرن الـ19، واللاحق عليها)، معروفة بـ«مغاسل المجدلية»: مصحّات عقابية مروّعة، بإدارة راهبات تابعات للكنيسة نفسها، بهدف ظاهريّ يقول بتقويم شابات «ساقطات»، أو مراهقات «منحرفات»، والعمل على «إصلاحهنّ». أيُعتبر الفيلم إدانة متأخّرة، أمْ استعادة سينمائية لجُرمٍ تعرفه البشرية في عصور ظلاميّة قديمة؟ الإدانة غير ظاهرة بفجاجة، والاستعادة طاغية أكثر، في حكاية رجل (كليان مورفي) يعمل في تجارة الفحم، في ثمانينيات القرن الـ20، يكتشف صدفةً هذه الـ«مغاسل». هذا (لا إدانة فاقعة، بل استعادة سينمائية لفعلٍ ومرحلة وبيئة) يُشبه الحاصل في «حمّام الشيطان»، للنمساويين فيرونيكا فرانتز وسِفِرن فيالا (جائزة «الدبّ الفضّي لأفضل مساهمة فنية» لمارتن غيشْلاغْت، مدير التصوير النمساوي): عنف تربية جماعية يؤدّي إلى ارتكاب جرائم قتل، للخلاص من قسوة حياةٍ، تنزعان (الحياة وقسوتها) عن المرأة تحديداً كلّ حسّ إنساني . بشري فيها.

غالاتِيَا بلّوتجي في «غلوريا»: عنف سلطاتٍ بنكهةٍ موسيقية (الموقع الإلكتروني للـ«برلينالة»)

> ثقل تاريخي أوروبي في أفلام تستعيد فصولاً وتروي قصصاً

جمالية تصوير تنكشف في مزيج بصري رائع بين تفكيك نفس بشرية، فردية وجماعية، وطبيعة غارقةً في لون رماديّ، يميل إلى العتمة غالباً، إشارة إلى ليلٍ مديدٍ لامتناهٍ. أداء النمساوية آنيا بْلاغ دورَ أغنس، الشخصية النسائية الأساسية، كفيلٌ بفهم مناخ عام، ومسارٍ حادٍ من انهيار فردٍ وخلل بيئةٍ واجتماع، بفَضل ملامح وتعابير صامتة غالباً، وحركة جسدٍ تقول أكثر من كلّ كلامٍ آخر. أغنس تتزوّج وولف (دافيد شايد) الذي تحبّ، لكنّها تكتشف، منذ الليلة الأولى، عدم قدرته على ممارسة دوره كزوج، فتبدأ رحلة في عمق جحيم، تغرق فيه تدريجياً، إلى لحظة ارتكابها جريمة قتل مراهق، كي تُعدَم بقطع رأسها، بعد فشلها في الانتحار. اختزال الحبكة غير حائلٍ دون تساؤلات جمّة، يطرحها «حمّام الشيطان»، لكنّها مترابطةٌ في سياق سينمائي متماسك ومُشوّق، وجميل رغم عنف حالة وأناس واجتماع. فالفيلم يستحقّ قراءة نقدية مستقلّة، لما فيه من تفاصيل ولقطات وأحوال، تعاين أصل العنف، أو أحد أصوله، في مجتمعاتٍ تنبذ العنف راهناً، بعد تاريخٍ مليء به. فـ«حمّام الشيطان» مرتكز على وقائع موثّقة، عن نساءٍ يرتكبن جرائم قتل لتُقطع رؤوسهنّ، بعد عذابٍ غير مُحتَمل، تعشنه في مناطق نمساوية، عام 1750.

بعد 50 عاماً على ذلك (1800)، يروي «غلوريا»، للإيطالية مارغريتا فيكاريو، حكاية فتياتٍ مراهقاتٍ يعشن في «كلية القديس إغناطيوس (Sant Ignazio)». هذا معهد موسيقيّ قديم متهالك، في مكان ما قريب من «فينيسيا». الحكاية غير عنيفة، رغم تسلّطٍ يُمارَس عليهنّ، من رجال يستغلّون مواقع لهم في السلطات الكنسية والاجتماعية والسياسية والإقطاعية لمصالح مختلفة. هذا مرويّ بنَفَس يقترب من الكوميديا المبطّنة، رغم أنّ مصائب عدّة تحلّ في المراهقات، مع جانب أساسيّ من الموسيقى والغناء.

نماذج سينمائية قليلة، مُنتَجَة حديثاً (2024)، تقول شيئاً من تاريخ عنيف لشعوب وجماعات، وإن تكن الكوميديا . الموسيقى أسلوب مقاربةٍ في بعضها. بعض تلك النماذج، خاصة «حمّام الشيطان»، يؤكّد أنّ للجماليات السينمائية وحِرفية الاشتغال البصري، وإن يكن عددها أقلّ، حضوراً في مسابقة الـ«برلينالة 2024»، إلى جانب أفلامٍ غير ملائمةٍ لها.

نديم...

## أفلام جديدة

■ Irish Wish لجانين داميان، تمثيل إدوارد سبيليرس وليندسي لوهان (فيسبوك): رغم اكتشافها أنّ «حُبّ حياتها»، الذي منحته كل مشاعرها الصادقة ورغباتها الجميلة وحيويتها الرائعة، سيقترن بصديقتها، تُقرّر مَادّي كيلّي أنْ تضع هذا كلّه جانباً، وتسافر إلى أيرلندا كي تكون «إشبينة» الصديقة. لكنْ، قبل وقتٍ قليل على موعد الزواج، تتمنّى مَادّي أمنية من أجل حبيبها، فإذا بها تستيقظ في اليوم التالي في جسد العروس.

■ It's A Christmas Thing لجيم كلايف، تمثيل إلّا كانُن (IMDb) وكريستوفر راسل وبنجامن جي ستيفنس: بالنسبة إلى لائحة عيد الميلاد الخاصة بها، فإنّ الأمنية الأكثر حضوراً لدى ميغان (9 أعوام) تتمثّل بمساعدة والدتها كارا في العثور على الحب الحقيقي. تُضيّع ميغان الرسالة، التي ستنتشر على نطاقٍ واسع، فيُقرّر الصحافي شَتْ والترز، المُكلّف بتغطية الأعياد، مساعدة كارا في تجاربها الرومانسية. هل ستدرك أنّ ما كانت تبحث عنه موجودٌ أمام عينيها؟

■ Mean Girls لسامنتا جاين وأرتورو بيريز جونيور، تمثيل أنغوري رايس ورينيه رابّ (فيسبوك): أمضت كادي (16 عاماً) طفولة سعيدة في أفريقيا، قبل اكتشافها التعليم العادي في مدرسة ثانوية أميركية. يُرحَّب بها في مجموعة فتيات مشهورات في المجتمع، تُسمّى «البلاستيكيات»، وتقودها ريجينا جورج. لكنْ، عندما ترتكب كادي خطأً، يتمثّل بغرامها بالصديق السابق لريجينا، تَشنّ المجموعة حرباً عليها.

■ Tarot لسبنسر كُون وآنّا هالبيرغ، تمثيل هاربيت سلاتِر (IMDb): فيلم رعب يتابع مصائر أصدقاء وصديقات، المشترك بينهم جميعاً انتماؤهم إلى عائلات ثرية. لكنْ، كلّما قرأ أحدهم . إحداهنّ «بطاقة تاروت»، يُقتل بطريقة غريبة للغاية، ما يدفع الآخرين . الآخريات إلى محاولة فهم ما يجري، للتخلّص من الموت الذي يطاردهم بعنف في كلّ الأمكنة وفي كلّ الأوقات.

■ Lift لأف غاري غراي (نتفليكس)، تمثيل كيفن هارت وأورسولا كوربيرو (ويكيبيديا الإنكليزية) وفنسنت دونوفريو: لصّ ذو خبرة كبيرة في السرقة، اكتسبها في سنين طويلة من «العمل»، يتودّد إلى صديقته السابقة بطريقة تدفعها إلى التساؤل عن سبب ذلك، خاصة بعد اكتشافها أنّه يتقرّب من مسؤول في إنتربول. الهدف؟ سرقة «مستحيلة» في طائرة «إيرباص 380»، تقوم برحلة بين لندن وزوريخ.